

السنة والشيعة امتحان الأخوة والتعقل

مصطلح « أهل السنة والجماعة » ، هو الإسم المفضل الذي استقر إطلاقه على السواد الأعظم من الأمة الإسلامية . وتندرج داخل مسمى « أهل السنة والجماعة » ، أسماء مذهبية عديدة ؛ كالمذاهب الفقهية الأربعة المعروفة ، والأشاعرة ، والماتريدية ، وأهل الحديث ، وأهل الظاهر ، ومعظم الطرق الصوفية ، وغيرهم .

وعلى جنبات « أهل السنة والجماعة » ، تشكلت طوائف ومذاهب أخرى ، تتميز ببعض خصوصياتها العقدية أو المرجعية ، أو ببعض مواقفها السياسية ، أو ببعض قواعدها المنهجية . وتندرج هنا أسماء : الشيعة ، والمعتزلة ، والخوارج ، وغيرهم .

وعلى مر التاريخ ، وإلى الآن ، فإن أكبر الطوائف بجانب أهل السنة ، هم الشيعة . وأكبر المذاهب الشيعية ، هو مذهب الإمامية الجعفرية . وإذا قيل الشيعة ، اليوم ، فالمقصود الشيعة الإمامية . وهم شيعة إيران والعراق ولبنان والبحرين

وباكستان وأفغانستان ...

وبغض النظر عما إذا كان الشيعة يشكلون عُشْرَ المسلمين ، أو أقل أو أكثر ، فإن كل حديث عن الوحدة والفرقة بين المسلمين ، أو عن الوثام أو الصراع بينهم ، أو عن العلاقة بين الطوائف الإسلامية ... فإنما يُعنى به أساساً: بين السنة والشيعة.

والحقيقة أن العلاقة بين السنة والشيعة ، هي المحك والمختبر ، لمدى قدرة المسلمين على قبول الاختلاف والتعايش ، فضلاً عن مدى تجسيدهم للوحدة والأخوة الإسلامية . بل هذا هو المحك لمدى تعقلهم ونضجهم الفكري والسياسي . نحن اليوم نستطيع أن نسجل الكثير من النقاط البيضاء المشرقة ، في علاقات السنة والشيعة ، سواء في لبنان ، أو في العراق . ولكن النقاط السوداء المظلمة في هذه العلاقة ، هي أضعافٌ مضاعفة ، مع أنها في بداية العتمة .

إنني أعتقد أن أكبر خطر يمكن أن يصيب المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم ، هو تفجير صراع شامل بين السنة والشيعة . وهو ممكن وليس ببعيد . وما لم تتحرك قوى التعقل والتفاهم والتآخي ، تحركاتٍ ناجحةً وفعالة ، فإن القوى

الأخرى ستمضي في إنجاز « سيناريو الدمار الشامل » ، ألا وهو تفجير الصراعات والحروب السنية الشيعية .

إن المسلمين اليوم ليسوا متروكين لحالهم ومشاكلهم وشؤونهم الداخلية . إنهم اليوم ، بكل دولهم ، وبكل طوائفهم ، وبكل أحزابهم ، وبكل قضاياهم القديمة والجديدة ، موضوعون فوق الطاولة وتحت الطاولة ، وفوق المختبر وتحت المجهر ، لأجل تمزيق وحدتهم ، وتعميق فرقتهم ، وتحطيم طموحاتهم ...

ولكننا اليوم - بالمقابل - في زمن وفي عالم لم يسبق له مثيل ولا شبيهه ، من حيث كثافة التواصل والتفاعل على جميع الأصعدة . وهذا يخدم ويسهل قضية الحوار والتفاهم والتمازج بين السنة والشيعية ، ويعطيها فرصا وإمكانات لا حدود لها . وهذا معناه أن بإمكان السنة والشيعية أن يحققوا لعلاقاتهم الدينية والفكرية والسياسية ، ما لم يحققه أسلافهم على مدى قرون وقرون .

بإمكاننا اليوم بسهولة ردم خنادق القطيعة والكراهية والحيلة وسوء الظن والريبة وحوار الطرشان ، وبعدها ننظرونواصل النظر، فيما بقي من خلافات علمية وفكرية ، حقيقية أو وهمية ، أو جامعة بين الوهم والحقيقة . لا عذر لأحد

اليوم في أن يقتصر في أحكامه وتصنيفاته لطوائف المسلمين ،
على كتب التاريخ والتراث التاريخي، بينما بإمكانه وميسوره ،
أن يجالسهم وينظرهم ، وأن يهاتفهم ويحاورهم ، على الإذاعة
والتلفزيون والإنترنت، وأن يقرأ مؤلفاتهم الحالية ومجلاتهم
وبياناتهم الآتية ...

وقديما قرر اللغويون قاعدة تصلح لمقامنا ولمقامات عديدة ،
وهي « إذا أمكن الاتصال فلا يُعدل عنه إلى الانفصال » . فإذا
أردنا تضيق الهوة العلمية والفكرية ، فعلينا أولاً ردم الهوة
النفسية والجسدية . وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها
قَالَتْ ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ : « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ،
فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ ، وَمَا تَنَكَرَّ مِنْهَا اخْتَلَفَ »^(١) .

إيران والعلاقات السنية الشيعية

تحتل إيران اليوم موقعا مركزيا بالغ التأثير في قضية
العلاقات بين السنة والشيعية، سواء من خلال مواقفها ، أو من
خلال المواقف منها .

السياسات الإيرانية ، الداخلية والخارجية ، تعد من
العوامل الحاسمة في تحديد مسار العلاقات السنية الشيعية .

وإذا كانت السياسة الإيرانية الداخلية ، هي سياسة شيعية بالدرجة الأولى ، وهو أمر مفهوم ومقبول ، فإن سياستها الخارجية لا بد وأن تكون سنية بالدرجة الأولى ، لأن إيران جزيرة في بحر سني . ف « الرهان » الخارجي لإيران ، لا يسعه - لكي ينجح - إلا أن يكون سنيا . وهو خيار طالما فرطت فيه إيران أو قلبت له ظهر المجن ، وخاصة في السنين الأولى للثورة ...

نعم يسجل لإيران موقفها المبدي الصارم تجاه القضية الفلسطينية ، ولكن الرقعة الإسلامية وقضاياها ، ومتطلبات القضية الفلسطينية نفسها ، هي أوسع وأحوج إلى سياسات ومواقف إيرانية تتجاوز حدود القرابة المذهبية وأولوياتها . بل إن السياسة الداخلية نفسها ، مدعوة إلى قطع جميع الاتهامات والشبهات المتعلقة بحقوق السنة ، من كرد وعرب وغيرهم .

من الجهة الأخرى ، يحلو لكثير من السادة الغربيين والساسة المحليين ، التنديد بالتدخلات الإيرانية في القضايا العربية ، والتحذير من الأدوار الإيرانية في المنطقة ، ومن الطموحات الإقليمية لإيران ... وهم عادة ما يقصدون تأثيرها في العراق ولبنان وفلسطين وأفغانستان .

وبخصوص العراق ، يعلم الجميع أنه يخضع لتدخل أجنبي ، غربي وغريب ، يحتل البلاد ويقتل العباد ، يدمر العمران ويقهر الإنسان . وهو يهدد كافة دول المنطقة وشعوبها ، وفي مقدمتها إيران . فكيف يقع هذا ويُقبل ، ويستتب ويستمر ، ثم يُستنكر على إيران تدخلها وعلاقاتها ، وهي طرف شقيق وشريك كامل لأهل المنطقة ، يصيبها ما يصيبهم ويعنيها ما يعنيهم ؟!

المفروض والمطلوب - في ظل الوضعية القائمة في العراق - أن يكون لإيران تدخل أكثر ودور أكبر في العراق ، بشرط واحد ، هو أن يكون ذلك عادلا ومتوازنا بشكل واضح لا لبس فيه ، وأن لا يظل محكوما بمنطق مذهبي وحسابات طائفية ؟ نرجو أن نسمع الجواب ، وإن كنا نفضل أن نراه على أرض الواقع .

أما في لبنان وفلسطين ، فإن جميع " الاتهامات " الموجهة لإيران ، إنما هي أوسمة شرفية يُعترف لها بها . وكل العرب والمسلمين ممتنون شاكرون لإيران ، على دعمها للمقاومة في البلدين المبتلين بأخبث احتلال وأشرس عدوان . وكلنا نتمنى لو كانت إيران قادرة على التأثير أكثر ، وعلى تقديم ما هو أكبر ، خاصة للمقاومة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني ، فإن هذا

من شأنه أن يخدم الوحدة والأخوة الإسلامية ، بين السنة والشيعة ، ولو كره الكارهون .

قضية التبشير المذهبي بين السنة والشيعة

تثير هذه القضية حساسية وتوترا - من حين لآخر - بين السنة والشيعة ، وخاصة في أوساط العلماء والدعاة من أهل السنة . وسببها أن إيران وحوزاتها ، قد نشطت في تشييع الشباب من أهل السنة ، وأحدثت بذلك اختراقات شيعية ، حتى في الأقطار التي ظلت سنية خالصة على مدى قرون وقرون ، كالسودان وشمال إفريقيا . ولم يسبق لي أن سمعت شكوى شيعية من التبشير السني الممنهج في الأوساط الشيعية . فالمشكلة إذاً محصورة في التبشير الشيعي في صفوف السنة ، أو محصورة في التشييع الممنهج لبعض أهل السنة .

وأنا أريد أن أقول كلمتين ، إحداهما في الاتجاه الشيعي ، والأخرى في الاتجاه السني .

١ . إذا كانت إيران/ الحوزة ، تربح من هذه العملية بضعة آلاف من الشيعة الجدد ، يزدون وينقصون ، فإن إيران/ الدولة ، قد خسرت ، وما زالت تخسر ، كثيرا من هذه العملية . وحتى إخواننا الشيعة الجدد ، فإننا يتم إدخالهم في

السراديب ، وفي حالة من الحصار والاغتراب ، داخل أوطانهم ومجتمعاتهم ، ولن ترتفع هذه الحالة ، إلا بانقراضهم . أما الاتجاه الآخر فمستحيل ...

٢. هذه الحالة ، وإن كان من الطبيعي أن تستفز أهل السنة وعلماءهم ، فلا ينبغي تضخيمها أو اتخاذها سببا لتوتير العلاقة وشحذ العداوة ، مع إيران ومع الشيعة عموما. ولا ننس أن بلداننا - بدون استثناء - قد أصبحت مسرحا ومرتعا للتبشير من جميع الجهات ، الدينية واللا دينية . وهذا جزء من طبيعة العصر وخصائصه.

ثم إن موجات التشيع في الأوساط السنية ، مرتبطة ببعض الانتصارات والمكاسب التي تحقّقها إيران أو حزب الله في لبنان ؛ فهي تطفو مع وجودها وفي أوجها ، ثم سرعان ما تحبو وتنكمش بعد ذلك ...

عن الملف النووي الإيراني

لقد أصبح ما يسمى « الملف النووي الإيراني » ، الشغل الشاغل للسياسة الخارجية ، للدول الغربية الاستكبارية ، وخاصة تلك التي يقودها « المجانين الجدد » . ويفترض أن التحضير لحرب جديدة على إيران ، يجري بمنتهى الدقة

والتأني ، منذ عدة سنوات . لكن التنفيذ تعترضه صعوبات كبيرة وتداعيات خطيرة . وتستمر الحسابات والإعدادات جنباً إلى جنب ، في انتظار ما سيبدو كأنه اللحظة المناسبة للهجوم .

إن إيران جديرة بالمناصرة القوية في هذا الملف ، من جميع العرب والمسلمين ، ليس فقط لكونها جزءاً منهم ، ولكن لأسباب موضوعية لا غبار عليها ، وهي :

١ . إيران لحد الآن تعلن وتؤكد تمسكها بالأغراض العلمية والسلمية لبرنامجها النووي . وهو ما تؤكد الوكالة الدولية للطاقة الذرية .

٢ . إيران لم يسبق لها أن شنت حرباً أو قامت بأي اعتداء ضد أي بلد ، مجاور أو غير مجاور ، بينما هي قد تعرضت للحرب والعدوان ، من جيرانها العرب ، ومن الدول الغربية . وهي اليوم تحت رحمة الحصار المتواصل والتهديدات اليومية بشن حرب أخرى ضدها .

٣ . إن الذين يهددون إيران ويتخذون من محاربتها شغلهم الشاغل ، هم الذين ملأوا دول المنطقة وبحارها وأجواءها ، بجيوشهم وكافة أسلحتهم ، ونشروا فيها الفوضى والدمار والخراب والدماء .

٤. إن هؤلاء أنفسهم ، هم مَنْ يضعون العالم كله ، تحت الخطر الماحق لأسلحتهم النووية ، ولكل أسلحة الدمار الشامل ، المكدسة في قواعدهم عبر العالم كله . وهم الذين سبق لهم استعمال هذه الأسلحة فعليا ، وليس ظنا أو توقعا أو تهديدا . وحتى أعقلهم ، الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك ، لم يفته التهديد باستعمال أسلحة « غير تقليدية » ، قبل شهور من مغادرته الرئاسة . فهؤلاء هم مَنْ يجب أن يتوجه إليهم كل حظر وكل تدبير احترازي ...
